فكرة «الوقت عند الصوفية»

بقلم الأستاذ

أبو الوفا التفتازانى

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

بجامعة القاهرة

وقد عنى الشاذلية - من الصوفية - بالكلام فى « الوقت » عناية خاصة ، وفكرة « الوقت » عندهم مرتبطة بمبدأ « إسقاط التدبير والإرادة » .

يقول أبو الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) فى معنى الوقت عن شيخه : « الوقت ليل، والشأن فى الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد ، أو نجوم العلم ، فيستضاء بها » .

ولتلميذه أبى العباس المرسى (المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) تحليل لفكرة الوقت ، فقد حكى ابن عطاء الله عنه قوله : « قال رضى الله عنه أوقات العبد أربعة لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه ، إذ هداه لها ووفقه للقيام بها ، ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغناء والتوبة ، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر - وهو فرح القلب بالله - ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر » .

فإذا كنا مع ابن عطاء الله السكندرى نجده يتعمق فى تحليل معنى الوقت ، ويعبر عنه بعبارات قوية فيها نفاذ ، وينصح السالك بأن يكون خاضعاً على الدوام لحكمه ، ويحذره من أن يحدث بإرادته فى وقته غير ما أراده الله له ؛ لأن فى ذلك منازعة للربوبية واستناداً إلى إرادته هو ، وكلاهما دال على جهله كل الجهل فى السلوك ،

وفى هذا يقول له : « ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه » .

وفائدة الخضوع لحكم الوقت عند ابن عطاء الله أن يوفى السالك كل وقت هو فيه حقه :

فاذا كان السالك فى وقت المعصية فحقه فيها الاستغفار ، وإذا كان فى وقت الطاعة فحقه فيها شهودها منة من الله وفضلا ، وإذا كان وقته البلية فحقه الصبر ، وإذا كان وقته النعمة فحقه فيها الشكر لله .

وهكذا يكون لكل وقت من أوقات السالك حق من حقوق العبودية لله لابد أن يؤديه فى الحال دون نظر إلى غيره .

ولا يصح للسالك أن يطلب من الله أن يخرجه من حالة إلى حالة أخرى ، أو بعبارة أخرى من وقت إلى وقت وإنما أدبه أن يترك انتقاله إلى إرادة الله ، وفى هذا المعنى يقول ابن عطاء الله للسالك : « لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج » .

وينبغى على السالك أن يعرف أن حقوق الأوقات لا تقبل التسويف بحال من الأحوال ، وأنه إذا فاته شىء منها لم يمكنه قضاؤه على الإطلاق .

ولذا ميز ابن عطاء الله له بين نوعين من الحقوق : حقوق فى الأوقات ، وحقوق الأوقات، فالأولى هى وظائف العبادات الظاهرة من الصوم والصلاة وغيرهما ، والسالك إذا فاته شىء منها أمكنه قضاؤه فى وقت آخر ، أما الثانية فهى حقوق المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحواله وارداته . وأوقاته ما هو عليه فى كل منها ، ولكل وقت منها حق ينبغى له أن يؤديه فى الحال ، وإلا لم يصل . وفى هذا المعنى يخاطب ابن عطاء الله السالك قائلا له : « حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها ، إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه ؟ ! »

ومن ثم نتبين مع ابن عطاء الله السكندرى أن الخضوع لحكم الوقت من أهم آداب السلوك إلى الله ، وأنه قائم على أساس من إسقاط الاختيار والتدبير ، لأن السالك إذا كان خاضعاً لحكم وقته فمعنى هذا أنه لا تدبير له بوجه من الوجوه ، والتدبير فى فلسفة ابن عطاء الله الصوفية يعنى النظر فى المستقبل وما تؤول إليه الأمور فيه

بشكل يؤرق بال الإنسان ، وهو يشعر بعدم الصدق فى العبودية لله : فنحن نفرح ونألم، نفرح حين تقبل علينا الدنيا بأسبابها المختلفة ، فنتوهم أن لإرادتنا مدخلا فى الأمر ، وقد يحدث أن تزول عنا هذه الأسباب العارضة على الرغم منا فنألم لذلك أشد الألم وتصبح حياتنا بين تعاقب الفرح والألم عذاباً نفسياً لا يطاق، مبعثه الفكرة الملحة فى أمر المستقبل وكيفية الاحتفاظ بمظاهر الدنيا وأسبابها . ولو سكن الإنسان منا فلم يشتد فرحه بما يقبل عليه من أسباب الدنيا ، وخضع لحكم وقته كما يقول الصوفية لم يحزن قط لوجود زوالها عنه ، ولو اتصف بالعبودية لما أفرحه بقاؤه وآلمه زواله وبذلك يستطيع الإنسان أن يتقبل المصائب والشدائد ، ويتمكن من الوقوف على قدميه فى معترك الحياة ، ويكافح كفاح الشجاع الثابت الواثق بالله .

إن الصوفية يدعون إلى العمل المثمر لا إلى التواكل ، وها هو ابن عطاء الله يقول : « الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية » ، أليست هذه الحكمة العطائية جديرة بأن يفيد منها الناس فى حياتهم اليومية؟ إن الانسان منا كثيراً ما ينطوى على نفسه متمنيا لها الأمانى المختلفة ، فيضيع وقته فى التمنى ولا يصل إلى هدف ما ، ولو أنه أشغل وقت التمنى بالعمل المتواصل لوصل - أو ساهم على الأقل فى الوصول إلى هذا الذى يتمناه دون إضاعة وقت .

حقاً إن الرجاء عند صوفيتنا - وكما ينبغى أن يكون عند جميع الناس - لابد أن يقارنه العمل المتواصل الشاق فى سبيل ما يرجو الإنسان ، وبهذا يكون الرجاء دافعاً إلى العمل الإيجابى المنتج ، وليس دافعا إلى الهروب والنكوص وإضاعة الوقت فى التخيلات والأوهام الكاذبة .

إن التفكير فى الماضى مذموم ، لأن الماضى قد انتهى ولا فائدة من التفكير فيه إلا بمقدار العظة ، والتفكير فى المستقبل مذموم ، لأن المستقبل لا علم لنا به ، ولا يمكن أن نخضعه لإرادتنا ، فلم يبق إلا أن نعيش فى « الوقت » وأن نشغله بالحق لا بالباطل ، وألا نجعله قاطعا لنا ، وبذا يكون الفرد منا « ابن وقته » بمعنى أن يشغل وقته بالعمل المتقن المثمر ، وهذا النوع من الفلسفة الصوفية « عملى » لا « نظرى » ويضفى على الإنسان معنى ساميا ، ويزيل التعارض بين الحياة التعبدية وحياة المجتمع الذى نعيش فيه .